https://www.linguist.ma
ISSN: 2665-7406 E-ISSN: 2737-8586

قوانين التطوّر اللغويّ في اللسانيات السوسيرية

د. حسين السوداني
المركز العربي للأبحاث ودراسات السياسات، قطر
soudani.houcine@gmail.com

الملخص:

يهدف هذا البحث إلى دراسة مفهوم مركزي في اللسانيات عموما وفي اللسانيات السوسيرية خصوصا، هو مفهوم التطوّر في وجهيه: التفسيريّ والاستشرافيّ. وتعود مركزية هذا المفهوم إلى أمرين؛ أولهما قدرته الاستشرافية والتاريخية في مقاربة تطور الألسنة البشرية، وثانيهما وجوده في تقاطع بين مختلف المفاهيم اللسانية الأخرى التي تظهر في شكل رؤوس منهجية مثل مفهوم النظام، أو في شكل ثنائيات مثل الآنية والزمانية، أو في ثواليث مثل اللغة واللسان والكلام. ومركزية مفهوم التطوّر كَفيلةٌ بإيضاح حقيقة العلاقة بين الآنية والزمانية في دروس فردينان دي سوسير الذي استقر في تقدير اللسانيين أنه الأب المؤسس لعلم اللسانيات. ولا شكّ أن إيضاح المسألة في خلفيتها السوسيرية ستزيل كثيرا من الأوهام التي رسّختها التصورات المدرسية التبسيطية للعلاقة بين التصورين السكوني النظامي والتطوري التاريخي للغة، ناهيك أنّ مصطلح التطوّر يرتبط على نحو ما بمفهوم "التغيّر" من جهة، ويستدعي مفهوم التغاير من جهة أخرى. فبين هذه المفاهيم من اللطف ما يجعل التمييز بينها ضروريا وجوهريا.

الكلمات المفتاحية:

التغيّر، التغاير، التطور، الآنية، الزمانية، اللسانيات، فردينان دي سوسير.

https://www.linguist.ma
ISSN: 2665-7406 E-ISSN: 2737-8586

Laws of linguistic evolution in Saussurean linguistics

Houcine Soudani
Arab Center for Research and Policy Studies, Qatar
soudani.houcine@gmail.com

***Abstract*:**

This paper aims to study a central Saussurean concept which is "evolutionary change". The centrality of the concept of "evolution" stems from its position at an intersection between various Saussurean linguistic concepts appearing either as central heads such as the concept of System, or in dichotomies like synchrony and diachrony, or trichotomies such as langage, speech, and discourse.

In fact, the centrality of the concept of linguistic evolution is enough to clarify the depth of Saussure's conception about the relation between synchrony and diachrony, which is deeply different from the vulgarizing and simplistic approaches, which reduce and shorten the Saussurean project in overtaking the diachrony.

***Keywords*:**

Evolutionary change, Saussurean linguistic, synchrony, diachrony.

https://www.linguist.ma
ISSN: 2665-7406 E-ISSN: 2737-8586

يعد

0. مقدمة

يعد مفهوم التغيّر من المنظور الفيزيائيّ أساس إدراك الإنسان لما حوله من الظواهر بما فيها الزمن، والتغيّر في التقدير اللسانيّ صنو التطوّر والحركة، ويعدّ التغيّر محورا اصطلاحيا يستقطب حركية اللغة من المنظور اللسانيّ في الوجهين: الزماني التطوري والآني السكوني، وبهذا المفهوم تتحدد الفروق الأساسية بين مناهج الدراسة اللغوي؛ فالحد الفاصل بين التصوّرين السكوني والتطوري في الظواهر اللغوية إنما هو أخذ التغيّر بعين الاعتبار أو عدمه، ويضاف إلى ذلك أنّ هذا المفهوم يقع في نقطة تقاطع بين المفاهيم السوسيرية المركزية والموصولة على نحو مّا بمفهوم التغيّر، فهذا المفهوم يبدو في البحوث التبسيطية سليل لسانيات القرن التاسع عشر متمثلةً في النحو المقارن واللسانيات التاريخية. ومن الأوهام التي رسّختها بعض الدراسات التبسيطية أنّ سوسير إنما بنى دروسه على أساس إبطال المقاربة التطورية. وهذا التصوّر هو الذي أشاع فهْما خاطئا لدروس سوسير رسخته التيارات البنيوية والشكلانية الناشئة من استثمار دروس سوسير، فلذلك اقترن نقد البنيوية في العقود الأخيرة من القرن العشرين بتحامل كبير على آراء سوسير لاسيما لدى من لم يطّلعوا عليها في متن دروس سوسير واكتفوا بقراءة سوسير من خلال ما كُتب عنه.

1. مفهوم التغيّر: حدّه وحدوده

يدلّ على معنى التغيّر في الاصطلاح السوسيري مصطلحان هما (*changement*) و(*variation*). ويفيد مصطلح التغيّر انتقالا في مستوى لغوي معيّن من وضع (أ) إلى وضع (ب). وَيُعَدّ التغيّر من المنظور السوسيري ظاهرة كونية ترتبط بكل كائن حيّ يتطوّر، وتقاس اللغة في ذلك على الكائنات الطبيعية فمن منظور سوسير "مثلما يتغيّر

https://www.linguist.ma
ISSN: 2665-7406 E-ISSN: 2737-8586

جهاز النبتة الداخلي بفعل عوامل خارجية كالتربة والمناخ إلخ، فإنّ جهاز اللغة النحوي يتغيّر كذلك بمفعول العوامل الخارجية التابعة للتغيّر اللغوي"[1].

وللغة من المنظور اللسانيّ وجهان: منطوق ومكتوب، ورغم أنّ المشافهة هي الأصل في اللغة فإنّ لمؤسسة الكتابة سلطانا عليها، فعلى هذا الأساس يرى سوسير أنّ مؤسسة الكتابة تخفِّفُ أحيانا من سرعة التغيّرات التي تطرأ على اللغة، لكن وبخلاف ذلك، فإن دوام اللغة وبقاءها لا يؤثر فيهما انعدام الكتابة بالمرة. ومثاله في ذلك أن "الناس في مطلع القرن العشرين لا يعرفون اللغة الليتوانية من خلال الوثائق المكتوبة إلا منذ 1540، وذلك على أنها لغة لا يزال الناس يتكلمون بها في بلاد بروسيا الشرقية وفي قسم من تراب بلاد روسيا. ولكنها تقدم لنا في تلك الفترة المتأخرة من تاريخها بوجه عام صورة أمينة عن اللغة الهندية الأوروبية تضاهي في صدقها ونقائها الصورة التي تقدمها لنا عنها اللغة اللاتينية في القرن الثالث قبل الميلاد. وهو الأمر الذي يقوم وحده برهانا على مدى استقلال اللغة عن الكتابة[2].

ومن المعطيات الأساسية في علاقة سوسير بالمقاربات التاريخية التطورية أنه خلال المسيرة العلمية لسوسير، طالبا وباحثا ومدرّسا، قد عايش أوج صعود المقاربات التاريخية في الدراسات اللغوية؛ فقد استقرّ مفهوم التطور الخلفية النظرية للعلوم في القرن التاسع عشر، وتجلى التسليم بمبدأ التطور في المنزعيْن اللذين تحددت بهما فلسفة المناهج المعرفية قاطبة في ذلك العصر، فأما أولهما فمنزع الوعي بأثر التاريخ وفعله في صيرورة الإنسان، وأما ثانيهما فمنزع البحث عن القوانين المتحكمة في كل الظواهر الطبيعية منها والإنسانية[3].

---

[1]. F. de. Saussure, (1997), p42.

نعتمد في الشواهد على الترجمة التونسية بالأساس، ونوثق باعتماد الإحالة على الأصل الفرنسي حتى يتسنى للباحث أن يستفيد من ضبط السياقات التي ورد فيها المصطلح الفرنسي من دروس سوسير. ومن ميزات الترجمة التونسية أنها تحيل على ترقيم الصفحات في الأصل الفرنسي، على أننا تصرفنا في النص العربي كلما اقتضى الأمر تعديلا بما يناسب ما نترجم به المصطلحات السوسيرية.

[2]. Ibid, p45.

[3]. عبد السلام المسدي، (1986)، ص110.

وقد كان سوسير دقيق التمثل وواضح الامتثال لروح المنهج التاريخي التطوري السائد في القرن التاسع عشر الذي يمثل الإطار العلمي الحاضن لتكوينه الأكاديمي، فمن خصائص المسيرة العلمية لسوسير أنه انتقل في سنة 1875 إلى ليبزغ حيث أشهر جامعة في تدريس الفيلولوجيا. وقد جسّدت المدة التي قضاها في ليبزغ مع الإقامة القصيرة التي قضاها في برلين الفترة الأساسية في تحصيله العلمي، فقد استطاع الاطلاع على السنسكريتية والإيرانية والليتوانية وكلّ من الإيرلندية والسلافية القديمتين. وكانت له خلال ذلك مساهمة فعالة في الجدل العلمي الذي كان يقوده النحاة الجدد مثل كارل بروغمان (Karl Brugmann) (1849- 1919) وهيرمان أوستوف (Hermann Osthoff) (1847- 1909) وأوغست لسكيان (August Leskien) (1840-1916). وفي

https://www.linguist.ma
ISSN: 2665-7406 E-ISSN: 2737-8586

فقد كان البحث التاريخي المقارن في القرن التاسع عشر قائما على التسليم بفكرة التطوّر باعتبار أساسيَ هو أنّ اللغة كائن طبيعيّ تنطبق عليه قوانين الظواهر الطبيعية عموما، وقد أذكى هذا التصورَ ورسخه تطوّر علوم الأحياء لاسيما بعد ظهور كتاب شارل داروين (*Charles Darwin*) (1809-1882) عن أصل سنة 1859[1]. وهو الكتاب الذي صدرت منه إلى حدود 1890 تسع وثلاثون طبعة. وقد لقي المنظور الداروينيَ تطبيقات مبكرة له في سياق اللغة انطلاقا من بحوث دارسين مثل شلايشر (*Schleicher*) (1882-1934 *Kurt Von*) في سعيه إلى صياغة مشجّر للألسنة البشرية. وبعيد هذه السنة أصدر أوغست لسكيان (1840 -1916) (*August Leskien*) خلاصة آرائه في الحتمية في كتاب له صدر سنة 1876 بعنوان "الانحراف في اللغتين البالتية السلافية والجرمانية" (*Germanischen Die Deklination im Slawisch-Litauischen und*)[2].

ولكن سوسير لا يسلّم بمبدأ التطور لمجرد الانخراط في روح التيار المهيمن في عصره؛ فمن جهة يرى أنّ التطور من صميم اللغة، ولكنه من جهة ثانية يبني تصورَه لمفهوم التطوّر على غير الخلفية العلمية التي استقرت في القرن التاسع عشر، فتطور اللغة حتمي من المنظور السوسيري، ولكنه متحقق من جهة أنّ اللغة كائن تاريخي اجتماعي لا من حيث هي كائن طبيعي. والفرق في مفهوم التطوّر بين المنظورين أن التطور الطبيعي للكائنات والظواهر التي تعدّ طبيعية هو تطوّر لا دخل للإنسان في تغيير مساراته، ومثال ذلك أنّ للنموّ الفيزيولوجي البشري مسارا يبدأ بالولادة والطفولة ويتوسط بالشباب والكهولة وينتهي بالكهولة والشيخوخة. وليس بإمكان التدخل البشري أن يحوّر هذا المسار أو يعكسه. أما المنظور التاريخي للتطوّر فيعني أنّ للإنسان يدا على تطوّر اللغة بالإبطاء أو التسريع، وبالإقرار أو الإبطال. ومثال ذلك في سياق اللغات أن من الألسنة ما كان يعدّ ميتا ثم أعيد إحياؤه بقرار بشري على نحو ما تمّ في اللغة العبرية، ومنها ما يكون حيا مستعملا ثم

سنة 1877 تقدم سوسير إلى الجمعية اللسانية بباريس بمقال طوّره لاحقا ليكون موضوع مذكّرة بحث قدمه وعمره 21 سنة في ليبزغ عن "النظام الأوّلي للحركات في الألسنة الهندية الأوروبية". وبعد سنتين ناقش أطروحة دكتوراه عن "استعمال المضاف المطلق في اللسان السنسكريتي، وبعد الحصول على الدكتوراه قدم إلى باريس فأتيحت له متابعة دروس ميشال بريال (Michel Bréal) (1832- 1915) عن النحو المقارن في المعهد التطبيقي للدراسات العليا، وهو الدرس الذي سيتولى سوسير تقديمه بنفسه بداية من سنة 1881، فتواصل تقديمه لذلك الدرس خلال ست سنوات.

[1]. Charles Darwin, (1959).

[2]. يعود الفضل إلى لسكيان في ترجمة كتاب ويتني من الفرنسية إلى الألمانية "حياة اللغة وتطورها" سنة 1975 أي بعد ظهوره بسنة.

https://www.linguist.ma
ISSN: 2665-7406 E-ISSN: 2737-8586

تتم إماتته بقرار سياسي، ومثال ذلك ما كان متداولا من اللغات في جمهوريات روسيا ثم تقرر تبني لغة موسكو لغة رسمية للاتحاد السوفياتي بدلا من التعدد اللغوي الحاصل قبل توحيد الجمهوريات.

إن تسليم سوسير بمبدأ التطوّر في اللغة جعله يرى أنّ ما قد يبدو من ثباتها ينبغي أن لا يغرينا بالتسليم بأزليتها؛ ذلك أنه "لا وجود في اللغة لخصائص ثابتة لا تتغيّر، ودوامها إنما هو من محض المصادفة. فإن ظلت إحدى الخصائص ثابتة على مرور الزمان فيمكنها كذلك أن تنقرض بمروره"[1].

من هذا المنطلق ليست الأولوية الاعتبارية التي يضفيها سوسير على الآنية إلا امتثالا لخيار منهجي، وهذا الخيار المنهجيّ لا يعني سكونية اللغة. وما قد يبدو من تنازع بين مقاربتين آنية وزمانية كثيرا ما يعمد سوسير إلى الاستعارة لتقريب صورته وضبط حدوده كما في استعارات لعبة الشطرنج والسلاسل الجبلية وغيرها، وهو ما سنفصّل القول فيه لاحقا.

ومن خلال هذا الجهاز الاستعاريّ يقرّب سوسير ثنائية التطور والسكون في اللغة، ويمهّد لأولوية اعتبارية للمقاربة النظامية السكونية على المقاربة التاريخية التطوّرية، فيرى أنّ "أوّل ما يشدّ الانتباه عند دراسة الظواهر اللغوية هو أن تعاقبها في الزمن أمر لا وجود له بالنسبة إلى المتكلّم: فالمتكلم يجد نفسه دائما تجاه حالة لغوية مّا. ولذلك يجب على الدارس اللساني الذي يريد أن يدرك حقيقة هذه الحالة اللغوية أن يضرب صفحا عن جميع الأمور التي أحدثتها، أي أن يتجاهل الزمانية. وهو لا يستطيع أن يدرك ما في أذهان المتكلمين إلاّ إذا ألغى الماضي إلغاء. وذلك أنه ليس من شأن تدخّل التاريخ والزمن إلاّ أن ينحرفا بأحكامه عن الصواب. فكما أنه يكون من قبيل العبث أن تحاول رسم منظر جامع لسلسلة جبال الآلب بالتقاطه وأنت تنظر إليها في نفس الوقت من قمم متعدّدة من جبال الجورا (*Jura*)؛ إذ ينبغي أن يرسم المنظر الجامع من نقطة واحدة، فكذلك الأمر بالنسبة إلى اللغة، فأنت لا تستطيع وصفها ولا ضبط قواعد استعمالها إلاّ إذا قصرت نظرك على حالة معينة من حالاتها. ومثل اللساني يتتبّع تطوّر اللغة كمثل الملاحظ يتحرّك متنقلا من طرف جبال الجورا إلى طرفها الآخر لملاحظة ما يحدثه تغيّر موضع الملاحظة من تحوّل في أبعاد عمق الصورة"[2].

ويفترض مفهوم التغيّر بهذا المعنى أنه ظاهرة تتحقق في حياة اللغة بالانتقال من وضع إلى آخر ومن لحظة زمنية إلى أخرى. وهذا التغيّر يفترض مبدئيا أنه تابع للوجه الزماني التطوري من حياة اللغة. ولهذه المسألة إطار نظريّ عامّ يجعل اللسانيات تنخرط في النواميس المتحكمة في كل العلوم.

[1]. Ibid, p316.

[2]. Ferdinand de Saussure, (1979), p117.

https://www.linguist.ma
ISSN: 2665-7406 E-ISSN: 2737-8586

لذلك يعقد سوسير مقارنة بين اللسانيات وغيرها من العلوم في تمثل مفهوم التطوّر، فيرى أنّ "اللسانيات التطوّرية (...) شبيهة بعلم الجيولوجيا الذي هو كذلك علم من العلوم التاريخية. وقد يصف أصحاب هذا العلم عرَضا، بعض الحالات القارة مثل الحالة التي عليها منخفض الليمان، الواقع شمال جبال الآلب، بين فرنسا وسويسرا، وذلك بقطع النظر عما يمكن أن يكون قد سبق تلك الحالة في الزمن لكنهم يهتمون خاصة بأحداث وتغيّرات تكوّن تسلسلها سلسلة من الزمانيات. ولئن أمكن نظريا أن نتصور علم جيولوجيا استقباليا فالواقع يثبت أن النظرة لا يمكن أن تكون في أغلب الأحيان إلاّ استردادية لا غير. فقبل أن نصف ما حدث في نقطة ما من الأرض تجدنا مضطرين إلى إعادة بناء سلسلة الأحداث والبحث عما جرَ تلك النقطة من الكرة الأرضية إلى أن تصبح على ما هي عليه الآن"[1].

إنّ هذه المعطيات تضفي على مفهوم التغيّر قيمة مخصوصة من حيث هو يستغرق اللغة في كل أوضاعها غير أنه في الوجه الآنيّ متناهي المجهريّة، وهو في الوجه الزمانيّ واضح للإدراك المجرّد، فهو إمّا حاصل بشكل تطوري تعاقبي بين وضعين لغويين متعاقبين أو بشكل تزامني داخل مكونات النظام.

وتوضّح هذه الثنائية تلا زما منهجيا بين الآنية والزمانية على نحو يتجاوز أوجه التبسيط المدرسيّ التي يجدها الباحث في الكتابات التي تختصر المشروع السوسيري في تجاوز المقاربة التاريخية الزمانية وإرساء أسس المقاربة الآنية النظامية.

بذلك يكون مفهوم التغيّر جوهر حياة اللغة وقرين نظاميتها، وتكون الآنية والزمانية سليلتين لمفهوم النظام في حركيته الداخلية والخارجية، ولإبراز أسس هذه النظامية المطلقة يعمد سوسير إلى السياق الصوتي، فيرى أنه لبيان ما يحدث داخل المجموعات الصوتية، علينا أن نضع فونولوجيا نعدّ فيها هذه المعادلات بمثابة المعادلات الجبرية؛ فالمجموعة الثنائية تقتضي عددا معينا من العناصر الآلية والأكوستيكية يكيّف بعضه بعضا، فإذا أصاب أحدَ هذه العناصر تغيّر كان له على العناصر الأخرى انعكاس حتمي يمكن تقديره وضبطه[2].

وهذا القيد الذي يختم به سوسير تصوره لعلاقة الوحدات الصوتية فيما بينها هو في الحقيقة عين ما يعرّف به علاقات الوحدات داخل النظام؛ إذ النظام في التصوّر السوسيري هو مجموعة من

[1]. Ibid, p293.

[2]. Ibid, p79.

https://www.linguist.ma
ISSN: 2665-7406 E-ISSN: 2737-8586

الوحدات التي تتفاعل فيما بينها على نحو يجعل كل وحدة داخل النظام لا تكتسب قيمتها من ذاتها وإنما من علاقتها ببقية وحدات النظام.

ويتجلى هذا النظام على نحويْن: سكونيّ وحركيّ، وبهذه الثنائية يُجْمل سوسير حياة اللغة في وجهين: وجه ثابت هو الذي يمثل دوامها واستمرارها عبر التاريخ، ووجه متحول هو المتمثل في تغيّرها وتطورها، يقول سوسير: للزمن الذي يحقّق استمرارية اللغة مفعول آخر مناقض للأول في الظاهر وهو تغيير العلامات اللغوية. ويحدث ذلك بدرجات متفاوتة من السرعة، ويمكن من بعض الأوجه أن ننسب إلى العلامة اللغوية صفتي اللاتحوّل والتحوّل في آن. والأمران في نهاية المطاف متضامنان. فالعلامة قابلة للتحوّل لأنها متواصلة في الزمن. وما يسود في كل عمليّة تغيّر هو بقاء المادة القديمة ودوامها. فعدم مطابقة اللغة لصورتها لا يكون إلا أمرا نسبيا وهذا ما يفسّر لنا كيف أن مبدأ التغيّر يقوم على مبدأ الاستمرارية"[1].

ولتفصيل ذلك يرى سوسير أنه "ينبغي أن لا نخطئ في فهم المعنى المسند إلى كلمة "تغيّر" في هذا المجال. فقد تحمل هذه الكلمة على الاعتقاد بأن الأمر يتعلّق خاصة بما يصيب الدّال من تغييرات صوتية وما يلحق المتصوّر المدلول عليه من تغييرات معنوية، وفي هذه النظرة بعض القصور، فمهما كانت عوامل التغيير وسواء أعمل كل واحد منها على حدة أم عملت معا فإنها تفضي دائما إلى تزحزح في العلاقة القائمة بين الدّال والمدلول"[2].

وهذا العموم في تحقق التغيّر في مستوى مكونَي العلامة دالا ومدلولا يلازمه عموم آخر في جريان قانون التغيّر، وهو أن التغيّر –خلافا لما قد يبدو- يتحقق بين الألسنة إذا وفد أحدها على الآخر. يقول سوسير: "لا ينبغي أن نتصور أن اللسان المنقول إلى مكانه الجديد هو وحده الذي سيتغيّر بينما يبقى اللسان الأصلي على حاله ثابتا لا يتغيّر. والعكس أيضا غير صحيح في المطلق. فقد تنشأ البدعة اللغوية من هذا الطرف أو من ذاك أو من كليهما. وهب أنه توجد خاصية لغوية نسميها «أ» يمكن تعويضها بخاصية أخرى هي (ب، ج، د...) فإنّ التمايز اللغوي يمكن أن يتمّ على ثلاث صور مختلفة:

[1]. Ibid, p108-109.

[2]. Ibid, p109.

https://www.linguist.ma
ISSN: 2665-7406 E-ISSN: 2737-8586

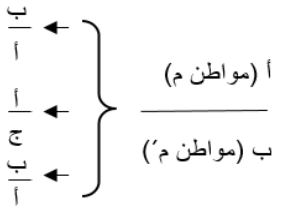

وإذن فلا يمكن أن تكون الدراسة متعلقة بأحد هذين الطرفين اللغويين فقط. وما يبتدع من ابتداعات في هذه اللغة أو تلك له نفس القدر من الأهمية"[1].

وهذا القيد المفهومي منهجي في جوهره، ذلك أنه يدعم الوجه النظاميَ من الظاهرة اللغوية، فللنظام ما يؤمّن استمراريته وديمومته لأن النظام استمرار دائم بين عناصر تتغيّر وأخرى تثبت، وبهذا الاعتبار يرى سوسير أنّ التغيّر يُدرَس ويفهم خارج النظام لا داخله، "فلما كانت التغييرات لا تلحق البتة النظام برمّته بل تلحق هذا العنصر أو ذاك من عناصره فقط فإنّه لا يمكن دراسة هذه التغييرات إلاّ خارج هذا النظام ولا شك أن لكل تغيّر من هذه التغيّرات صداه في النظام، لكن التغيّر الأول قد أصاب عنصرا واحدا فقط وليس له أية صلة داخلية بالنتائج التي قد تترتّب عليه بالنسبة إلى مجموع النظام. وهذا الفرق من حيث الجوهر، بين عناصر متعاقبة وعناصر متواجدة أي بين ظواهر جزئية وظواهر تمسّ كامل النظام، يمنعنا من أن نجعل من هذه وتلك مادة لعلم واحد"[2].

في ضوء هذه المعطيات يمكن إجمال ما نخلص إليه من ضبط سوسير لحدود مفهوم التغيّر في أربع خلاصات أساسية:

أولاها: أنّ التغيّر من صميم حياة اللغة، وتقتضي مجهريةُ التغيّر تفحّصَه في دقائق النظام اللغوي، وفي هذا الجانب يعدّ التطوّر تابعا للوجه التطوّري للغة.

والثانية: أن للتغيّر وجهين: آنيا وزمانيا، فالوجه الزماني يتم بالانتقال من حالة لغوية إلى حالة أخرى. والوجه الآني يتم بتغاير متزامن بين استعمالات مختلفة لدى متكلمين من عصر واحد، وذلك وفق ما يسمّيه سوسير "الاتحاد الزماني".

[1]. Ibid, p270-271.

[2]. Ibid, p124.

https://www.linguist.ma
ISSN: 2665-7406 E-ISSN: 2737-8586

والثالثة: أنّ مفهوم النظام يمثل مساحة مشتركة بين المقاربتين الآنية والتطورية، وذلك على نحو يزيل الأوهام التي تختصر نظرية سوسير اختصارا مخلاً راج بمقتضاه فهْم لسوسير من حيث هو يقدّم المقاربة الآنية بديلا عن المقاربة الزمانية الرائجة في عصره والتي استقرت مبادئها منذ القرن التاسع عشر.

والخلاصة الرابعة: أنّ مفهوم التغيّر يختزل حركية اللغة في بعديها الآني والزماني، وهو لذلك أوسع من مفهوم التطوّر. فالتطوّر مفهوم مجاله التعاقب في حين أنّ التغيّر قد يكون على سبيل التزامن، فيكون تغايرا لا تطوّرا.

2. الضوابط العامة لمفهوم التغيّر في الدرس السوسيري:

يوحي حصول التغيّر في سلّم الزمن بأنّ في نظام اللغة تخلّقات (*Métamorphoses*) وحركية داخلية تجعل من غير المستساغ القول في اللغة بغير التطور، فلذلك يعمد سوسير إلى ربط مسألة التغيّر بالبنية في ثلاث مسائل، أولاها تعريف التغيّر من المنظور اللساني الآني، والثانية هي مولدات التغيّر في اللغة، والثالثة هي تجليات ذلك في مستوى العلامات من حيث هي المخرَجات النهائية للنظام اللغوي.

ويرتبط مفهوم التغيّر في هذه المستويات الثلاثة ارتباطا وثيقا بالديناميكية الداخلية بين وحدات النظام، وهو الأمر الذي يجعلنا نفهم هلامية التخوم بين الآنية والزمانية، فكأن الأمر لا يعدو مجرد مواضعة نظرية منهجية. والمثال الذي يعتمده سوسير للبرهنة على ذلك هو مثال لعبة الشطرنج، وهذا المثال هو من الاستعارات الوظيفية التي عمد إليها سوسير لإيضاح جوانب تقنية دقيقة في دروسه أهمها مفهوم النظام من حيث بنيته ومن حيث حركيته الداخلية والخارجية.

ففي هذا المضمار يرى سوسير أنه "لا يكون النظام أبدا إلاّ نظاما مؤقّتا إذ هو يتغيّر بتغيّر موقع القِطع. وصحيح أن قيمة القطع هي رهينةٌ كذلك وبالخصوص لتواضع ثابت لا يتغيّر هو قانون هذه اللعبة، وهو قانون موجود قبل بداية المقابلة، ويستمرّ وجوده بعد كل عملية من عمليات اللعب. ومثل هذا القانون المتفق عليه اتفاقا لا رجعة فيه موجود كذلك في ميدان اللغة وتمثّله المبادئ القارّة للسيميولوجيا"[1].

[1]. Ibid, p126.

https://www.linguist.ma
ISSN: 2665-7406 E-ISSN: 2737-8586

ويتجلى مفهوم التغيّر في هذا السياق الآني في أننا إذا أردنا أن نمرّ من حالة توازن في اللعب إلى أخرى أو من حالة آنية إلى أخرى فإنّه يكفي لذلك نقل قطعة واحدة لا غير، لا أن نحدث اضطرابا عاما في ترتيب القطع. ويرى سوسير أن هذه المقارنة عالية الوجاهة انطلاقا من مقارنة في ثلاثة مستويات.

أوّل هذه المستويات أنّ لاعب الشطرنج لا يحرّك عند القيام بكل عملية إلاّ قطعة واحدة وكذلك الشأن في اللغة إذ لا تطرأ التغيّرات إلاّ على عناصر منعزلة. وثاني المستويات أنه على الرّغم من ذلك فإنّ لكل عملية تأثيرا في كامل النظام ويستحيل على اللاعب أن يتنبأ بالضبط بالحدود التي يقف عندها ذلك التأثير. وتكون التغيّرات في القيم بعد كل عملية إما منعدمة أو مهمة جدا أو متوسطة الأهمية وذلك حسب الظروف. فيمكن لعملية من العمليات أن تحدث انقلابا في سير المقابلة بأسرها وأن يلحق تأثيرها حتى القطع التي كانت لوقتٍ ما خارج نطاق انعكاسات اللعب. وهذا الأمر ينطبق تماما على اللغة[1].

والمستوى الثالث أنّ تحويل قطعة من مكان إلى آخر هو حقا عملية متميّزة تميزا مطلقا من حالة التوازن السابقة وحالة التوازن اللاحقة لها مباشرة. والتحويل الحاصل هكذا لا ينتمي إلى هذه الحالة ولا إلى تلك: ونحن نعلم أنّ الحالات هي الشيء المهمّ الوحيد[2].

ونخلص من ذلك إلى أن مفهوم التغيّر هو حقا ما يمثل ناظم الانتقال بين حالات وأوضاع في النظام، وذلك الأمر هو ما يمثل في الحقيقة جوهرَ حيوية النظام. فلذلك يواصل سوسير التوسع في استعارة لعبة الشطرنج بضرب من الترشيح الاستعاريّ (أي الإتيان بما يلائم لفظ المستعار منه) فيرى أنّ "لكلّ وضع تكون عليه القطع أثناء مقابلة في الشطرنج طابعه الذي تنفرد به، وهو أنّه وضْع قد تخلّص من ربقة ما سبقه من الأوضاع الأخرى. وليس يهمّنا أن نكون وصلنا إليه من هذه السبيل أو تلك، وليس للذي يكون قد تتبّع جميع أطوار المقابلة أدنى فضل في فهمها على فضوليّ قد يأتي فينظر ما وصلت إليه حالة اللعبة في الفترة الحاسمة. وإذا أردنا أن نصف وضع القطع في هذه المرحلة لم نكن في حاجة البتة إلى أن نذكّر بما حصل قبل ذلك بلحظات معدودات. وكل هذا ينطبق كذلك على اللغة ويقرّ نهائيا مبدأ التمييز الجذري بين الدراسة الزمانية والدراسة الآنية إقرارا. فالكلام لا يقوم أبدا إلاّ على أساس حالة من حالات اللغة، أما التغيّرات التي تطرأ بين حالة وأخرى فلا محلّ لها فيه"[3].

[1]. Ibid, p126.

[2]. Ibid, p126.

[3]. Ibid, p126-127.

https://www.linguist.ma
ISSN: 2665-7406 E-ISSN: 2737-8586

ولكن سوسير يستدرك بفرق وحيد بين اللغة ولعبة الشطرنج هو الاختلاف في المقصدية، فيشير إلى أنه "لا نجد إلاّ نقطة تختل فيها صحة وجه الشبه بين اللغة ولعبة الشطرنج: فلاعب الشطرنج يحوّل القطع ويحدث في النظام أثرا عن قصد، أما التغيّر الحاصل في اللغة فهو خال من كل قصد وسابق إضمار، إذ تتحوّل قطعها أي عناصرها أو بالأحرى تتغيّر تلقائيا وبحكم المصادفة والاتفاق. فإمالة فتحة (*hanti*) في قولهم (*Hände*) وكذلك فتحة (*gasti*) في (*Gästi*) قد نتجت عنها صورة جديدة لصياغة الجمع، ولكنها أحدثت أيضا صورة جديدة من صور تصريف الفعل كما في قولهم (*tragi*) عوضا من (*trägit*) إلخ. ولكي تشبه مقابلة الشطرنج قيام اللغة بعملها شبها كليا ينبغي أن نفترض وجود لاعب لا وعيَ له ولا ذكاءَ. على أن هذا الفرق الوحيد بين اللغة ولعبة الشطرنج يجعل المقارنة أكثر إفادة للناظر إن هو بيّن كيف أنه من الضروري أن نميز في اللسانيات بين هذين الضربين من الظواهر تمييزا مطلقا، إذ لئن تعذّر علينا حصر الظواهر الزمانية وردّها إلى النظام الآني الذي تكيفه تلك الظواهر عندما يقصد المرء إلى أن يقوم بتغيير من هذا القبيل فمن باب أولى وأحرى أن يستحيل ذلك عندما تسلّط تلك الظواهر الزمانية قوّة عمياء على صورة انتظام نظام من أنظمة العلامات"[1].

على هذا النحو يتجلى مفهوم النظام من حيث هو جوهر الدرس السوسيري في وجهيه الآنيّ السكوني والتاريخي التطوّري، وإنما يتجلى الفرق بين السياقين في مواضعة منهجية بمقتضاها يكون النظام سكونيًا في المنظور الآنيّ، حركيًا في المنظور التطوّريّ.

مدخلات التغيّر اللغويّ ومخرجاته

نقصد بالمدخلات مختلفَ المولّدات التي تهيئ الأرضية لحصول تغيّر في مستوى لغويّ معيّن، ونقصد بالمخرَجات ما تؤول إليه أبنية اللغة بحكم التغيّرات التي تطرأ عليها. ولسياقَي المدخلات والمخرجات علاقة متينة بالجهاز النظري السوسيري في مكوناته الدقيقة، فمن ذلك مثلا أن المدخلات تستدعي النظر في المستويات الثلاثة للظاهرة اللغوية: الكوني والاجتماعي والفردي. وهو أمر يؤكد مبدأ الترابط الوثيق بين مكونات الدرس السوسيري.

[1] Ibid, p127.

https://www.linguist.ma
ISSN: 2665-7406 E-ISSN: 2737-8586

1.3. مولدات التغيّر اللغويّ

من المعطيات الأساسية في هذا الجانب من نظرية سوسير ما يشار إليه في سياقات أخرى من أنّ الظاهرة اللغوية ثلاثية المستويات: مستوى كوني ومستوى اجتماعي ومستوى فردي، وهي ما يساوي في اصطلاحه على التوالي: اللغة (*Langage*) واللسان (*Langue*) والكلام (*Parole*). والمستويان الأخيران هما المستويان اللذان يجدان في الجهاز النظري السوسيري إطارا عمَليا لدراستهما ولبيان أوجه تجلّيهما في اللغة، فضلا عما بينهما من علاقة تراقب وتشارط.

إن اللسان هو مستوى تجريدي متحقق في اللغة انطلاقا من التحايث الضروري دائما بين كل منجَز لغوي والقواعد الداخلية المسيّرة له، فحيث ثمة كلام ثمة قواعد وضوابط نُظم الكلام على منوالها بالضرورة. وأن يكون هذا النظام مستنبطا من الكلام معناه أن كل تغيّر في هذا الأخير يرشّح لتغيّر في اللسان الذي تم استقراؤه منه. لذلك يصرّح سوسير في عبارة جازمة بأن "كل ما هو زماني في اللغة ليس كذلك إلاّ بواسطة الكلام. فبذور جميع التغيّرات إنما تكمن في الكلام، وكل تغيّر إنما منطلقه الأول عدد محدود من الأشخاص قبل أن يدخل في الاستعمال العام"[1].

ومثال سوسير في ذلك فعل الكينونة في الألمانية "فأنت تراهم يصرّفون فعل الكينونة في الألمانية المعاصرة فيقولون: (*ich war*) و(*wir waren*) بينما كان يصرّف في الألمانية القديمة حتى القرن السادس عشر على نحو آخر هو: (*ich was*) و(*wir waren*) (ونحوَ ذلك ما نجده في اللغة الإنجليزية إلى الآن في قولهم: *I was* و*we were*). فتُرى كيف تمّ إبدال"*war*" بـ "*was*"؟ الجواب أن بعضهم تأثر بـ (*waren*) فأنشأ (war) قياسا عليها فكانت هذه الصيغة في بداية الأمر تابعة للكلام ثم كثر ترددها في الاستعمال وارتضتها المجموعة اللغوية فأصبحت تابعة للغة. لكن ليس كل ما يجدّ في الكلام من ابتكارات يكتب له نفس القدر من النجاح. وما دامت هذه الابتكارات مقصورة على بعض الأفراد فلا فائدة في أخذها في الحسبان، وذلك لأننا إنما ندرس اللغة، فلا يمكن أن تدخل هذه الابتكارات مجال دراستنا وملاحظتنا إلاّ متى قبلتها المجموعة"[2].

إنّ اعتبار مستوى الكلام حيّزَ المتغيّرات هو اعتبار ذو وظيفة عَمَليّة إجرائية، وذلك في مستويين؛ أولهما أنّ التغيّرات اللغوية تصبح ظاهرة تاريخية حتمية وعلامة على حياة اللغة، وبالتالي يقتضي المنظور العلمي توصيف التغيّر واستقراء علله وتجلياته. والمستوى الثاني هو أنّ مختبر التخلقات

[1] Ibid, p138.

[2] Ibid, p138.

https://www.linguist.ma
ISSN: 2665-7406 E-ISSN: 2737-8586

الحقيقي إنما هو الكلام. وهذا مردّ الاستدراك الذي قدّمه سوسير في معرض ضبطه لموضوع اللسانيات، فبعد أن أسهب في بيان أن مستوى اللسان هو المستوى الأحرى بأن يكون موضوعا للسانيات، بيّن مشروعية وجود ضربين من اللسانيات هما لسانيات اللسان ولسانيات الكلام. ولا شكّ أن لسانيات الكلام هي المضمار الذي كانت منه مشروعية ولادة بحوث الخطاب. ومن رحم لسانيات الكلام كان مبحث الأسلوبية على صلة وثيقة بسوسير من وجهين: أولهما ما يراه الباحث من تصنيفية علوم اللغة بعد ظهور سوسير، والثاني أنّ من ينسب إليه الباحثون منشأ الأسلوبية -وهو شارل بالي *Charles Bally* (1865-1947)- هو تلميذ سوسير وأحد المتجنّديْن الأساسيّيْن لجمع دروسه، فقد جمع دروس أستاذه سوسير بالتعاون مع زميله (*Albert Sechehaye*) (1870-1946)، ثمّ نشراها سنة 1916 بالتنسيق مع ألبار ريدلنجار (*Albert Riedlinger*) (1882- 1978).

2.3. مُخرَجات التغيّر اللغويّ

من البديهي القولُ بأنّ التغيّر إنما يدرك من منظور عام بما يوجد بين حالتين لغويتين من اختلاف، فلذلك عرّفنا في مطلع بحثنا التغيّر اللغوي بأنه انتقال في مستوى لغوي معيّن من وضع (أ) إلى وضع (ب). وهذا المعطى العام يتجلى تفصيليا في حياة العلامة اللغوية، وذلك انطلاقا مما يشير إليه سوسير معرّفا تغيّر العلامة بأنه "ضرب من زحزحة العلاقة القائمة بين الدّال والمدلول"[1].

ومن هذا المنطلق الجزئي يعمم سوسير تصوره للتطور، فيرى أن هذا التعريف ينطبق لا على تغيّر عناصر النظام فقط بل وعلى تطوّر النظام نفسه أيضا، فيخلص إلى أنّ "الظاهرة الزمانية في مجموعها إنما تنحصر في ذلك لا غير. بيد أنه متى حصلت لدينا ملاحظة تحويل ما في حدود الوحدات الآنية، فإننا نبقى مع ذلك بعيدين كل البعد عن تفسير كل ما جدّ في صلب اللغة تفسيرا كاملا؛ إذ يوجد مشكل هو مشكل الوحدة الزمانية في ذاتها ويتمثل في تساؤلنا بخصوص كلّ حدث لغوي عن العنصر الذي يخضع مباشرة لعملية التحوّل[2].

ولإيضاح هذه المعطيات يستند فردينان دي سوسير إلى أمثلة صوتية، وهي السياق الأوضح للتغيّر اللغوي، يقول سوسير: "وقد اعترضنا مشكل من هذا القبيل بشأن التغيّرات الصوتية، فهي لا تصيب إلاّ الصوتم المنعزل، أما الكلمة من حيث هي وحدة فلا عمل لتلك التغيّرات فيها. وبما أنه توجد أنواع شتى من الأحداث الزمانية فإنّه يتعين علينا أن نحلّ عددا كبيرا من المسائل المماثلة.

[1]. Ibid, p248.

[2]. Ibid, p248.

https://www.linguist.ma
ISSN: 2665-7406 E-ISSN: 2737-8586

ولهذا فإنّ الوحدات التي سنعيّن حدودها في المجال الزماني لن توافق بالضرورة وحدات المجال الآني. فمفهوم الوحدة، طبقا للمبدأ الذي رسمناه في القسم الأول، لا يمكن أن يكون نفس المفهوم في هذين المجالين معا. ومهما يكن من أمر فإنّ مفهوم الوحدة لن يتبلور تمام التبلور ما لم ندرسه في كلا مظهريه: مظهره القار ومظهره التطوري. إن حل مسألة الوحدة الزمانية هو وحده الذي سيمكننا من تجاوز الجوانب الخارجيّة من ظاهرة التطور ومن إدراك باطنها وجوهرها. فمعرفة الوحدات ههنا كما في المجال الآني أمر ضروري لتمييز ما هو وهم مما هو واقع"[1].

ومن اللطائف في مفهوم التغيّر أن سوسير يدقق فيه بين ظاهرتين قد تلتبسان لأن مدارَهما على الاختلاف بين وضعين متر ابطين. ولكن هذا الاختلاف في سياق التغيّر الذي عليه مدار النظر هنا زمانيّ (*Diachronique*)، والضرب الثاني الذي قد يلتبس به آني (*Synchronique*) أي حاصل بالتزامن بين الوضعين. وقد استطرد سوسير في تفصيل ذلك بما يسميه "مسألة الاتحاد الزماني"، فقال: "ثمة مسألة أخرى على جانب كبير من الدقة واللطف وهي مسألة الاتحاد الزماني. وفعلا فلكيْ نستطيع الجزم بأن وحدة من الوحدات قد ظلت كما هي أي متحدة مع ذاتها أو بأنّ صيغتها ودلالتها قد تغيّرتا مع بقائها وحدة متميزة -وكلتا الحالتين ممكنة الوجود- ينبغي أن نتبيّن الحجة التي نستند إليها للقول بأن العنصر الفلاني التابع لعصر ما (مثل كلمة *chaud* الفرنسية مثلا) مماثل تماما لعنصر آخر تابع لعصر آخر (ككلمة *calidum* اللاّتينية مثلا"[2].

وللتمييز بين التغيّر، وهو ظاهرة تطورية، والتغاير، وهو ظاهرة آنية يقترح سوسير تفصيلا صوتيا يوضح من خلاله الفرق بين أن يتزامن استعمالان متقاربان من جهة وأن يتعاقبا وفق شروط تطوّر محددة من جهة أخرى، فيقول: "إنّ *calidum* لا بدّ أنها آلت إلى *chaud*، طبقا لقواعد اللغة العادية، بمفعول عمل القوانين الصوتية وبالتالي فإنّ كلمة *chaud* هي *calidum*. وهذا ما يطلق عليه اسم الاتحاد الصوتي. وكذلك الأمر بالنسبة إلى *sever* و*sēparāre*. وبعكس ذلك نقول إنّ *fleurir* و*flōrēre* ليستا نفس الشيء، وذلك لأن *flōrēre* كان ينبغي أن تؤول في الفرنسية إلى *flouroir* إلخ. ويبدو لأول وهلة أن هذا النوع من التطابق شامل لمفهوم الاتحاد الزماني عموما. والواقع أنه من المستحيل أن يكون الصوت بمفرده مفسرا لأسباب الاتحاد الزماني تفسيرا تاما. ولعلنا محقون عندما نقول إنّ الكلمة اللاّتينية *mare* ينبغي أن تكون صيغتها في الفرنسية *mer* لأن كل فتحة في اللاّتينية قد تحولت إلى فتحة ممالة *e* في الفرنسية في بعض الظروف المقيدة، ولأن الـ *e* غير

[1]. Ibid, p248- 249.

[2]. Ibid, p249.

https://www.linguist.ma
ISSN: 2665-7406 E-ISSN: 2737-8586

المنبّرة إذا وقعت آخرا سقطت إلخ. بيد أن في الجزم بأن الذي يمثل الاتحاد إنما هو تانك العلاقتان *a* ⟵ *e* و *e* ⟵ صفر، قلبا لطرفي المسألة إذ إن الأمر بعكس ذلك، لأنّ حكمنا بأن الـ *a* انقلبت إلى *e* وأن تلك الـ *e* سقطت من نهاية الكلمة إلخ.. إنما هو مستمد بالذات من المطابقة بين *mare* و*mer*"[1].

والقول الفصل في التمييز بين التغيّر والتغاير هو أنّ التغاير حيزه مكانان والزمن واحد، في حين أنّ التغيّر حيزه زمانان والمكان واحد. يقول سوسير: هب أنه يوجد شخصان ينتمي كل منهما إلى جهة معينة من فرنسا وأن أحدهما يقول *se fâcher* والآخر *se fôcher* فالفرق بينهما ثانوي بالقياس إلى الظواهر النحوية التي تمكننا من معرفة أن تينك الصيغتين المتميزتين تمثلان في الحقيقة وحدة لغوية واحدة. أما الاتحاد الزماني بين كلمتين مختلفتين اختلاف *calidum* و*chaud* فيعني أن الانتقال من الأولى إلى الثانية قد تمّ عبر سلسلة من الاتحادات الآنية في صلب الكلام، لا أكثر ولا أقل، وذلك دون أن يحدث بسبب التحولات الصوتية المتتالية أيّ انفصام للصلة الجامعة بينهما[2].

في ضوء هذا التمييز يبني سوسير مثالا آخر لإيضاح الفرق بين التغيّر والتغاير، وهو أنّ كلمة *Messieurs* أي "سادتي" إذا ترددت في الخطبة الواحدة فإنها تظل مماثلة لذاتها تماما بقدر ما هو مفيد أن نعرف لماذا تكون أداة النفي الفرنسية *pas* أي خطوة مماثلة تماما للاسم *pas* أو أن نعرف -والقضية واحدة في نهاية المطاف- لماذا اعتبرنا كلمة *chaud* الفرنسية مماثلة لـ *calidum* اللاّتينية. وليست المسألة الثانية في الحقيقة سوى امتداد للأولى وصورة متشعبة منها[3].

إن هذا الترابط الوثيق بين الآني والزماني يتجلى على نحو آخر في أنّ ما يسمى "حالة لغوية" ليس ناتجا عن تخوم واضحة عليها إجماع بين كل الدارسين، وإنما الأمر محض مواضعة وذلك من ثلاثة أوجه: أولها أنّ الحقبة قد تطول وقد تقْصر بحسب استمرار خصائص اللغة أو خروجها عنها. والثاني أنّ الأمر كثيرا ما يخضع لاعتبارات سياسية خالصة، والوجه الثالث أنّ الذي يدرس هذه التغيّرات يدرس حالات سابقة، وأدوات البحث فيها يمكن أن توسعها أو تضيقها لا فقط لاعتبارات خارجية وإنما كذلك لاعتبارات منهجية منها ما يتعلق بحدود أدوات البحث نفسها. يقول سوسير: "ومن الناحية العملية فإنّ ما يسمى بـ"حالة من حالات اللغة" ليس نقطة في الزمان إنما هو مدّة

[1]. Ibid, p250.

[2]. Ibid, p249-250.

[3]. Ibid, p249- 250.

https://www.linguist.ma
ISSN: 2665-7406 E-ISSN: 2737-8586

زمانية قد تطول وقد تقصر ويكون مجموع ما طرأ أثناءها من تغييرات طفيفا جدا. فقد تبلغ تلك المدة عشر سنوات أو جيلا أو قرنا بل أكثر من ذلك. وقد لا تتغيّر لغة من اللغات إلاّ قليلا وذلك خلال حقبة طويلة من الزمن ثم إذا بك تراها قد أصابتها بعد ذلك تغيّرات هامة في بضع سنوات. فخذ لك لغتين متعايشتين في فترة زمانية واحدة، فقد تتطوّر إحداهما تطورا كبيرا بينما لا يكاد يحدث في الأخرى شيء من ذلك. لذا تكون الدراسة بالضرورة آنية في الحالة الثانية وزمانية في الحالة الأولى. ولما كان حدّ الحالة اللغوية المطلقة هو انعدام التغيّرات، ولما كانت اللغة تتغيّر رغم ذلك - مهما يكن ذلك التغيّر ضئيلا - فإنّ دراسة حالة من حالات اللغة يؤول بنا عمليا إلى أن نهمل تلك التغيّرات الطفيفة على غرار ما يفعل الرياضيون عندما يهملون في بعض عملياتهم الحسابية الكميات المتناهية في الصغر كما هو الشأن في حساب أنساب الأعداد (أي الخوارزمات)"[1].

إنّ لقانون التغيّر من الأهمية ما جعل سوسير يسعى إلى تدقيقه مما يمكن أن يلتبس به من مفاهيم قد تشتبه به، فالتعريف الذي انطلقنا منه في مطلع البحث يفضي إلى إمكانية الالتباس بين ضربين من التغيّر، أحدهما زماني، وهو مدار النظر في هذا السياق. والثاني آنيّ، وهو محض تغاير بين وضعين لغويين متزامنين. لذلك ميز سوسير بين ثنائي الحقيقة الآنية والحقيقة التاريخية من جهة أن ما بينهما من التطابق كثيرا ما يفضي إلى الخلط بينهما. ورغم ما يراه من ثانوية الفصل بينهما فإنه يستطرد في التمثيل للطف التمييز بينهما. يقول سوسير: "إن بين الحقيقة الآنية والحقيقة التاريخية من التطابق ما يجعلنا نخلط بينهما، ونعتبر فصل إحداهما عن الأخرى أمرا زائدا لا يُحتاج إليه. فمن ذلك أنهم يحسبون أنهم قد فسّروا معنى كلمة père في فرنسية اليوم إذا هم قالوا: إن كلمة *pater* اللاّتينية لها نفس المعنى. ومن ذلك أيضا قول بعضهم إنّ الفتحة القصيرة (*a*) إذا وقعت في مقطع منفتح ولم يكن ذلك المقطع في أول الكلمة انقلبت كسرة (*i*): كما في *faciō* و*confico* وفي *amīcus* و*inimīcus* إلخ. وغالبا ما صاغوا هذا القانون بقولهم: إن الفتحة (*a*) في كلمة *facio* أصبحت كسرة (*i*) في *conficio* لأنها لم تعد في المقطع الأول. وهو خطأ لأن فتحة *faciō* لم «تنقلب» إلى كسرة *conficiō* بتاتا. وإذا أردنا الرجوع إلى ما هو الصواب في هذه المسألة وجب علينا أن نميّز بين عهدين وأربعة عناصر: فقد نطقوا في بادئ الأمر *confaciō* - *faciō* ثم تحوّلت *confaciō* إلى *conficiō* بينما ظلت *faciō* على حالها لم تتغيّر فنطقوا: *conficiō* - *faciō*، ونمثل لك ذلك كما يلي:

[1]. Ibid, p142.

https://www.linguist.ma
ISSN: 2665-7406 E-ISSN: 2737-8586

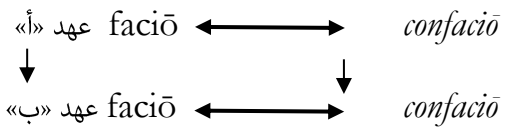

فإن صحّ أنه قد حدث «تغيّر» ما، فلا يمكن أن يكون إلا بين *conficiō* و*confaciō*. بيد أن القاعدة السابقة لم تشر إلى *confaciō* حتى مجرّد الإشارة. وذلك لأنهم لم يوفقوا في صياغتها صياغة حسنة. ثم إننا نجد إلى جانب هذا التغيّر الزماني بطبيعة الحال، أمرا آخر يتميز من الأول كل التميز. ويتعلّق بالتقابل الآني المحض بين *faciō* و*conficiō*. فقد يميل المرء إلى القول بأنه ليس ظاهرة، وإنما هو نتيجة ومع ذلك فهي ظاهرة في صعيدها الآني بالذات، بل إنّ جميع الظواهر الآنية انما هي من هذا القبيل. والذي يحول دون إدراك القيمة الحقيقية للتقابل بين *faciō* و*conficiō* هو أنه تقابل ليس له كبير معنى"[1].

إنما أخذنا هذا الشاهد المطوّل من أمثلة سوسير لأنّ كثيرا مما يعدّ زمانيا تطوّريا إنما هو محض تزامن بين مستويين لغويين، وكل ما في الأمر أنّ الذي يراجع تاريخ اللغة كثيرا ما يركن إلى الأيسر لاسيما إن لم يجد ما يستدلّ به على التطوّر. ومن ملامح خطورة المسألة أنّ سوسير يقارن السياق السابق بمثال آخر لثنائيّ يقوم على تقابل متولّد عن تطور صوتيّ، ولكن هذا التقابل يمكن تأويله آنيا من حيث هو متعلق بظواهر نحوية جوهرية، يقول سوسير: "إذا نظرنا إلى الزوجين الآتيين *Gäste-Gast* «ضيف - ضيوف» و *gibt-gebe* «أعطى- يعطي؛) رأينا أن هذين التقابلين هما كذلك من باب النتائج الاتفاقية المتولدة عن التطوّر الصوتي. لكن ذلك لا يمنع من أنها تمثل على الصعيد الآني ظواهر نحوية جوهرية. ولما كان هذان الصعيدان بما فيهما من ظواهر مترابطين من جهة أخرى ترابطا وثيقا - إذ يكيّف كل واحد منهما الآخر - فقد انتهى الأمر ببعضهم إلى الاعتقاد بأن التمييز بينهما أمر لا حاجة لنا به. وفعلا فقد ظلوا يخلطون في اللسانيات بين هذين الصعيدين طيلة عشرات السنين وغاب عنهم أنّ منهجهم هذا منهج لا خير فيه"[2].

إنّ هذا التنسيب هو من الخصائص الأساسية في تعامل سوسير مع الظواهر التطورية، وهو تنسيب يمكن أن يفهم في الإطار العلمي العام الذي غدا يسم اللسانيات بفعل غلواء المنهج التاريخي المقارن في القرن التاسع عشر، فمن ذلك أنّ القوانين الصوتية التي صاغها جاكوب غريم (*Jacob Grimm*)

[1] Ibid, p136-137.

[2]. Ibid, p137.

https://www.linguist.ma
ISSN: 2665-7406 E-ISSN: 2737-8586

(1785-1863) وظلت فيها ثغرات واستثناءات سعى تلاميذه إلى البحث عن الاطراد فيها، فأسسوا بذلك الحلقة التي غدت تسمى "النحاة الجدد" مثل بروغمان (*Karl Brugmann*) (1849-1919) وديلبروك (*Delbrück*) (1871-1888) وأوستوف (*Hermann Osthoff*) (1847-1909)[1]. فقد بلغت المسألة درجة كبيرة من الغلوّ جعلت لسانيين مثل أووتو جسبرسن (*Otto Jespersen*) (1860-1943) ينتقدون هذه الآراء التي تتعامل مع المنظور التطوّري من وجهة نظر أحادية ودون تنسيب. فمن ذلك ما كان يدعى قانون (p.t.k)، فقد كان كوليتز (*Hermann Collitz*) (1855-1935) يقيم ترابطا حتميا بين تغير الأصوات وبيئات المتكلمين، فعزا تطور الأصوات الشديدة في اللغة الألمانية إلى نظائرها الرخوة إلى عامل الطبيعة الجغرافية في بعض جهات ألمانيا، فأكد في مقالاته أن الجهات الجبلية التي تميل لغاتها إلى التخلص من أمثال (b.d.g) فتهمس أولا لتصبح على الترتيب (p.t.k) ثم تقلب هذه إلى نظائرها الرخوة، أي الفاء والثاء والهاء. وهو يفسّر ذلك بأن البيئة الجبلية تتطلب نشاطا كبيرا في عملية التنفس على نحو يميل بالأصوات من الشدة إلى الرخاوة[2].

وقد عارض جسبرسن هذا المنظور بأنّ هذه الظواهر تتحقق في غير هذه البيئات الجغرافية[3]، وعدذ ذلك من غلوّ بعض أعلام مجموعة النحاة الجدد وعلى رأسهم لاسكيان[4] . فلذلك تتنزل وجهة نظر سوسير في إطار هذا التنسيب من غلواء المقاربات التاريخية التي ترسخت تقاليدها منذ القرن التاسع عشر، ومن أوجه هذا التنسيب قول فردينان دي سوسير مجادلا ما ذكرناه آنفا: "قد يذهب الظن ببعضهم إلى أنه يكفي لتفسير ما حدث في كلمة *phuktos* اليونانية أن نقول: إن الحرفين (*g*) أو (*kh*) ينقلبان كافا (*k*) إذا وقعا قبل حروف مهموسة، وأن نعبّر عن هذا التغيّر بتطابقات آنية من قبيل *phugeín* : *phuktós* و*lékhos* : *léktron* إلخ. لكننا نصطدم بحالات من قبيل *thriksí* : *trikhes* نلاحظ فيها تعقدا يتمثل في «المرور» من (*t*) إلى (*th*)، فلا يمكن أن نفسر صيغ هذه الكلمة إلاّ تفسيرا تاريخيا بالاعتماد على تسلسلها النسبي في الزمان. فقد تولد عن أصل الكلمة الأول *thrikh* مع اللاحقة الإعرابية si صيغة *thriksí*. وهي ظاهرة قديمة جدا مماثلة لتلك التي تولدت عنها صيغة *lektron* انطلاقا من الجذر *lekh* ثم في مرحلة لاحقة آل كل صوت

[1]. O. Jespersen, (1954), p93.

[2]. إبراهيم أنيس، الأصوات اللغوية، ص164.

[3]. المرجع نفسه، ص 164.

[4]. O. Jespersen, (1954), p93.

https://www.linguist.ma
ISSN: 2665-7406 E-ISSN: 2737-8586

منفس متبوع في نفس الكلمة بصوت منفس آخر إلى صوت مهموس فآلت *thríkhes* إلى *tríkhes* بينما شذت *thriksí* بطبيعة الحال عن هذه القاعدة، فلم تسلك نفس المسلك[1].

إن هذا المثال الذي يذكره سوسير يمثل بحق أدق حجة على تلازم وجهين في اللغة: نظاميّ يمثل آنيتها، وتطوري يجسّد حركيتها. وهذا السياق يستثمره سوسير لتقريب مفهوم القيمة في النظام اللغوي، فمن منظوره قد يلحق قيمة عنصر من العناصر تغيّر دون أن نكون قد غيرنا من معناه ولا من مادته الصوتية، إنما بمجرّد أنّ عنصرا قريبا منه قد أصابه تغيّر ما[2].

إن المستوى الأوضح للتغيّر اللغوي هو الواقع في المستوى الصوتي من الدوال، وهو تغيّر كثيرا ما يؤول إلى إمكانيات التباس لغوي، ففي كثير من الحالات ينقاد المتكلمون إلى نطقهم العفوي، وهو قائم بالضرورة على مبدأ الجهد الأدنى، فيؤدي ذلك إلى التباس بين صيغ لا يميز بعضَها من بعض إلا فويْرق صغير في سمة تمييزية لصوتم معيّن، ومثال ذلك في العربية أنّ انقياد كثير من المتكلمين لنطقهم التلقائي آل إلى تماهي صوتمي الضاد والظاء في ظلّ وضلّ وفي ضنّ وظنّ، وهو الوضع في تونس والجزائر مثلا.

على هذا النحو اتخذ سوسير من بعض الظواهر الزمانية شواهد توضّح المعالم الخاصة بهذه المسألة توضيحا كبيرا، ويصفها بأنها تلك التي لا تحصى والتي فيها يؤدي تغيّر الدّال إلى تغيّر في الفكرة، والتي فيها نلاحظ أن جملة المعاني المتميز بعضها من بعض توافق مبدئيا جملة العلامات التمييزيّة. فكلما استوت كلمة في كلمة أخرى نتيجة للتغيّر الصوتي مثل *décrépit* = *decrepitus* و *crispus* = *décrépi* نزع معنياهما إلى الاستواء أيضا، شريطة أن يتوفر فيهما ما يدعو إلى ذلك. وأما إذا أصبح للكلمة صورة ثانية متميّزة من صورتها الأولى (مثل *chaise* و*chaire*) فإنّ هذا التميّز الحاصل سينزع في جميع الحالات إلى اكتساب دلالة خاصة[3]، على أن ذلك لا يتحقق دائما ولا من أوّل وهلة. وبعكس ذلك فإنّ كل اختلاف معنوي يدركه الذهن، يسعى المرء إلى التعبير عنه بدوالّ متميزة، وكل معنيين لم يعد الذهن يميّز بينهما ينزع المرء إلى الخلط بينهما والتعبير عنهما بنفس الدال[4].

---

1. Ibid, p136-137
2. Ibid, p166.
3. يذكر أصحاب الترجمة التونسية مثالا مهمّا في هذا المقام، وهو مثال البرتقال وبلاد البرتغال، وهي عند الجغرافيين العرب بلاد البرتقال.
4. Ibid, p167.

https://www.linguist.ma
ISSN: 2665-7406 E-ISSN: 2737-8586

من النقاط المهمة التي يخلص إليها الباحث من هذا المنظور السوسيري أنّ التغيّر ليس في هذا المنظور وضعا طارئا على اللغة من الخارج، وإنما هو من صميم ماهية اللغة، وهو أحد ملامح حيويتها الداخلية. ويتجلى هذا التصوّر انطلاقا من ردّ سوسير على من يمكن أن يعزوَ التغيّرات في اللغة إلى مجرّد عوامل خارجية، فهو يقول: "إن قال قائل: إنّ الاختلاف في البيئة والمناخ وصورة الأرض والعادات الخاصة (التي يتميز بها شعب من ساكن الجبال من آخر يسكن على ساحل البحر) قد يكون لها تأثير في اللغة وبالتالي فإنّ التنوع اللغوي الذي نحن بصدد درسه مقيد بعوامل جغرافية، قلنا: إنّ وجود تأثيرات من هذا القبيل أمر فيه نظر، وحتى لو أقيم الدليل على وجودها فإنّه ينبغي حينئذ أن نميز بين الأمور التالية: **إنّ اتجاه مثل هذا التطور** اللغوي يمكن أن يعزى إلى البيئة. وهو اتجاه تتحكم فيه في كل حالة من الحالات الخاصة عوامل غير متوقعة يصعب تقديرها. فهب أن الضمة أصبحت كسرة مستديرة في وقت ما في بيئة ما. فلماذا تغيّرت في ذلك الوقت وفي ذلك المكان بالذات؟ ولماذا آلت إلى تلك الحركة أي كسرة مستديرة لا إلى حركة أخرى مثل الضمة شبه المنغلقة؟ ذلك ما لا يمكننا الإجابة عنه. **أما التطور في حدّ ذاته**، بقطع النظر عن اتجاهه الخاص ومظاهره الخاصة -ونعني بالتطور عدم استقرار اللغة- فهو راجع إلى عامل الزمان وحده. وإذن فالتنوع اللغوي باعتبار المكان مظهر ثانوي من هذه الظاهرة العامة. ووحدة الألسن التي بينها قرابة لا يمكن الوصول إليها إلاّ عبر الزمان وهذا مبدأ ينبغي على المقارنين من اللسانيين أن يضعوه نصب أعينهم إن هم أرادوا ألا يكونوا عرضة لما لا تحمد عقباه من الأوهام"[1]. وهذا الرأي ينسجم تماما وما يذهب إليه أوتو جسبرسن من موقف إزاء غلواء المقاربات التطورية في دراسة المسائل الصوتية[2].

فبذلك يكون التغيّر معطى لغويا من صميم تخلقات اللغة من الداخل، وبهذا يتجلى شمول ظاهرة التطور لوجهي اللغة الآني والزماني. فبذلك تكون ظاهرة التطور من نظام اللغة وبنيتها مثلما هي من أعراضها الخارجية. في ضوء ذلك يمكن أن نفهم الخلاصات التي صاغها سوسير في شكل قوانين لدراسة التغيّرات الصوتية إذ يعتبر أنها تمثل عمق اللغة في تلازم وجهيها الآني والزماني. فمن ذلك صاغ أربع خلاصات مهمة

فالأولى أنّ هذه الظواهر الزمانية ليست الغاية منها البتة التعبير عن قيمة من القيم بواسطة علامة أخرى جديدة، وشاهدُ سوسير في ذلك هو مثال التغيّرات الصوتية في كلمة "*gasti*"، "فأن تكون *gasti* قد آلت إلى *gesti* ثم إلى *geste* (وترسم في الألمانية *Gäste*) أمر لا يمت إلى صيغ الأسماء بصلة. ألا ترى أنّ نفس الظاهرة الصوتية أي الإمالة في قولهم *tragit* التي آلت إلى *trägt*

[1]. Ibid, p272.

[2]. O. Jespersen Language, (1954), p93-94.

https://www.linguist.ma
ISSN: 2665-7406 E-ISSN: 2737-8586

تتعلّق بتصريف الأفعال، وهكذا دواليك. فالظاهرة الزمانية إذن إنما هي حدث شرعية وجوده كامنة في ذاته، أمّا ما يترتّب عليها من نتائج آنية خاصة فهي غريبة عنها ولا تمت إليها بصلة"[1].

والخلاصة الثانية أننا "لا نلاحظ في هذه الظواهر الزمانية أدنى نزعة ولو إلى تغيّر نظام اللغة: فليست الغاية منها المرور من نظام من العلاقات إلى نظام آخر، وذلك لأن التغيّر لا يتعلّق بترتيب العناصر بالذات وإنما بالعناصر المرتّبة نفسها"[2]. فمن هذه الناحية يؤلّف مفهوم النظام مساحة مشتركة بين الآنية والزمانية، فمن منظور سوسير " لا يغيّر النظام البتّة تغيّرا مباشرا، فهو في حدّ ذاته ثابت لا يتغيّر إنما يلحق التغيّر بعض العناصر دون بعض بصرف النظر عما يربطها من تضامن. وهذا الأمر شبيه بما قد يحدث لو أنّ كوكبا من الكواكب التي تحوم حول الشمس تغيّر حجمه ووزنه. فقد يحدث هذا الحدث المنعزل نتائج عامة ويحوّل توازن النظام الشمسي بأكمله. وللتعبير عن الجمع لا بدّ من وجود مقابلة بين صيغتين: فإمّا *fōt* :*fōti* وإمّا *fōt* : *fēt*. وهاتان الطريقتان في صوغ الجمع متساويتان في إمكان الوجود، بيد أن الانتقال من الأولى إلى الثانية قد وقع دون أية ممارسة إنّ صحّ هذا التعبير: فليس المجموع بأكمله هو الذي تحوّل، ولم يحدث نظام نظاما آخر؛ بل إنّ عنصرا من عناصر النظام الأول قد تغيّر، وكان هذا كافيا لأن يولّد عنه نظام جديد"[3].

من هذه الملاحظة يخلص سوسير إلى نتيجة ثالثة، فمن وجهة نظره تجعلنا النتيجة السابقة "ندرك على نحو أحسن من ذي قبل أن الحالة اللغوية ذات طابع **عفويّ** دوما. فاللغة خلافا لتلك الفكرة الحاصلة لد ينا عنها غالبا ليست إوالية خلقت ونسّقت عناصرها للتعبير عن المتصوّرات بل نلاحظ على العكس من ذلك أنّ الحالة اللغوية الناتجة عن التغيّر لم يكن القصد منها التعبير عما تتضمّنه تلك الحالة من معان: فقد تحدث حالة لغوية عفوية عن طريق الاتفاق وتصبح معطى من المعطيات كنحو *fōt* : *fēt* فنغتنمها لنحمّلها دور التمييز بين المفرد والجمع. ولكن هذا لا يعني أن الحالة اللغوية *fōt* : *fēt* أوفق للتعبير عن ذلك المعنى من *fōti* *: *fōt* ، إنما ينفخ فكر الإنسان - بالنسبة إلى كل حالة لغوية - في مادة معيّنة ويبعث فيها الحياة. لكن هذه النظرة التي أوحت إلينا بها اللسانيات التاريخية ظلّت مجهولة في النحو التقليدي، ولم يكن أصحابه ليصلوا إليها البتّة

[1]. F.de. Saussure, (1997), p121.

[2]. Ibid, p121.

[3]. Ibid, p121.

https://www.linguist.ma
ISSN: 2665-7406 E-ISSN: 2737-8586

بمناهجهم الخاصة. كما أن معظم فلاسفة اللغة يجهلون هذه النظرة كذلك، والحال أنه لا وجود لفكرة أهم منها من الناحية الفلسفية"[1].

وأما الخلاصة الرابعة فجعلها سوسير إجابة عن السؤال: هل يمكن على الأقل اعتبار سلسلة الظواهر الزمانية وسلسلة الظواهر الآنية من نفس القبيل؟

تتمثل إجابة سوسير في نفي أن تكون سلسلتا الظواهر الآنية والزمانية من نفس النوع، وتعليل ذلك أنّ التغييرات تحدث دون أن يكون لحدوثها أي مقصد. أما الظاهرة الآنية فهي على العكس من ذلك ذات دلالة دائما، وتستوجب دائما وجود عنصرين متزامنين، فالذي يعبّر عن الجمع ليس كلمة *Gast* بمفردها وإنما تعبّر عنه المقابلة بين الكلمتين *Gast* و*Gäste*. أما الظاهرة الزمانية فالأمر فيها عكس ذلك تماما فهي لا تتعلق إلاّ بعنصر واحد: فلكيْ تظهر صيغة جديدة *Gäste* مثلا، يجب أن تتنازل لها الصيغة القديمة (*gasti*) عن مكانها[2]. ويخلص سوسير من ذلك إلى أنّ محاولة الجمع بين ظواهر متنافرة كل التنافر في علم واحد هو من باب الإقدام على عمل من الأعمال الوهمية إذ نحن نباشر في وجهة النظر الزمانية ظواهر ليس لها أية علاقة بالأنظمة رغم أنها تكيف تلك الأنظمة.

الخاتمة

تعود القيمة الابستيمولوجية لمفهوم التغيّر في أنه الآلية الخلفية للثنائية الراسخة في دراسة الظواهر على محور الزمن: آنيا أو تطوّريا. وهي الثنائية التي استقرت في اللسانيات، ولكنها تتجاوز الظاهرة اللغوية والعلم اللسانيّ لتكون أساسا نظريا يتعلق بكل ما يمكن أن يشمله النظر العلميّ، ولئن استقر في الأذهان تمييزٌ بين مقاربتين: سكونية آنية لا تعتمد معيار الزمن، وتطوّرية زمانية تعتمده، فإنّ من أوجه الأهمية في الدرس السوسيريّ أنه يدرس المستويين المنهجيين بتبصر عميق، فإذا به يخلص في دراسة مفهوم التغيّر إلى ما يلتبس به من التغاير، فينتهي إلى أنّ النظام في حركيته الداخلية الآنية وفي حركيته الخارجية التطورية خاضع لقوانين اشتغال النظام اللغويّ، وهو أمر يفضي إلى مستقر آخر لمبدأ النظام، حيّزه الذهن نفسه، فأيا كان مستقرّ النظام ومرجعه، فإن تجليه في الذهن المسيّر للغة والمحدد لوجهة نظرنا للعالم والأشياء.

[1]. Ibid, p121-122.

[2]. Ibid, p122.

https://www.linguist.ma
ISSN: 2665-7406 E-ISSN: 2737-8586

بيبليوغرافيا

- عبد السلام المسدي، اللسانيات وأسسها المعرفية، الدّار التّونسيّة للنّشر، المؤسّسة الوطنيّة للكتاب الجزائر، تونس، 1986.
- ابراهيم أنيس، الأصوات اللغوية، مكتبة نهضة مصر، القاهرة، د.ت.
- Charles Darwin, On the Origin of Species by Means of Natural Selection, or the Preservation of Favoured Races in the Struggle for Life, London, 1959.
- Ferdinand de Saussure, cours de linguistique générale, publié par Charles Bailly et Albert Séchehaye avec la collaboration d'Albert Riedlinger, Edition critique préparée par Tulio de Mauro, postface de Louis-Jean Calvet, 1997.
- Otto Jespersen Language; its nature, development and origin, London: G. Allen & Unwin, Collection robarts; Toronto, 10th edition, 1954.